الباب الأول

حالة العالم الإسلامى قبيل ظهور الحسن الصباح

١ — العالم السنى :

كانت زعامة العالم الإسلامى السنى فى يد العباسيين ، وقد كانوا جديرين بهذه الزعامة فى العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) ، أما فى العصر العباسى الثانى (٢٣٢ — ٣٣٤ هـ) ، وما تبعه من عصور ، فقد أخذ الضعف يدب فى جسم دولتهم ، ولم يعد العباسيون يتمتعون بذلك السلطان المطلق الذى كانوا يتمتعون به من قبل . واستبدت بهم عناصر لا تمت إلى عنصرهم العربى الهاشمى بصلة : استبد بهم الفرس ، ثم طغى عليهم نفوذ الترك ، فكان منهم الوزير والقائد ، بل السلطان ، ومنهم حكام الأقاليم وموظفو القصور الخلافية . ولم يلبث هؤلاء أن أخذوا يعزلون من يشاءون من الخلفاء ، ويولون من يشاءون . وأصبح الخليفة معهم ، كما قال الشاعر :

خليفـــة فى قفص بين وصيف وبغـا
يقـول ما قالا له كما تقـول الببغـا

بل لقد وصف الخليفة العباسى ، المعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ)

نفسه خير وصف، وأبان سوء حالة الخلفاء العباسيين، واستبداد الأمراء الأتراك بهم، فقال يتحسر :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتحمل باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء فى يديه
إليه تحمل الأموال طرا ... ويمنع بعض ما يجبى إليه

على أنه فى عصر إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ) لم يعد للخليفة العباسى السنى أى شيء من الاحترام، فاستبد أمراء الأمراء به، حتى لم يعد للخليفة مع أميره شيء من النفوذ.

ولم يلبث الخلفاء العباسيون أن وقعوا تحت تأثير بنى بويه الشيعيين، وظلوا تحت نفوذهم أكثر من قرن (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ). ونحن نعلم أن هؤلاء البويهيين كانوا يعطفون على الشيعيين، رغم خوفهم السياسى من الفاطميين، مما ساعد على نجاح الدعوة الإسماعيلية فى بلاد فارس، ومهد السبيل لظهور الحسن الصباح وجماعته. إذ لم يكن للعباسيين مع البويهيين الشيعيين رياسة على المسلمين. اللهم إلا تلك الرياسة الرمزية الدينية فقط، وبعبارة أخرى، إن الدولة والملك قد انتقل [كل ذلك] فى آخر أيام المتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ = ٩٤٠ — ٩٤٤ م)، وأول أيام المستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ = ٩٤٤ — ٩٤٥ م)، من آل العباس إلى آل بويه. والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية إنما هو أمر دينى اعتقادى، لا ملكى دنيوى ... فالقائم من ولد العباس الآن (فى عهد البيرونى)، هو رئيس الإسلام، لا ملك، (١).

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية عن القرون الخالية، (ليبزج، سنة ١٩٢٣ م) ص ٩٣٢

على أن العباسيين تعرضوا لخطر جسيم آخر ، نراه فى تفكك وحدة العالم الإسلامى ، فقد استقلت دويلات كثيرة عن الدولة العباسية ، مما أوهن من شأن الخـــلافة السنية . وأهم هذه الدول المستقلة ، الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) ، والدولة السامانية (٢٦١ — ٢٨٩ هـ) التى انضم أحد ملوكها إلى عبيد الله المهدى ، وتبادل معه الرسائل (١) ، ثم الدولة الغزنوية (٣٥١ — ٥٨٢ هـ) ، وكذلك بنو بويه . ولا ننس دولة الطولونيين (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) ، ثم دولة الإخشيديين (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) ، والدولة الفاطمية ، فى بلاد المغرب أولا ، ثم فى مصر ثانياً (٢٩٦—٥٦٧ هـ) ، والأمويون فى الأندلس (١٣٨ — ٤٢٢ هـ) . كان هذا كله خطراً على كيان الدولة العباسية ، التى أصبحت عرضة لضربات الصفاريين وعبث العابثين .

ولم يلبث البويهيون فى بغداد أن دالت دولتهم ، وحل السلاجقة محلهم ، منذ سنة ٤٤٧ هـ ، فتعرض العباسيون لخطر جسيم كاد يودى بدولتهم ونفوذهم ، فثار عليهم أبو الحارث البساسيرى ، وكثير من أمراء العراق ، وعاون الفاطميون هؤلاء الثوار معاونة جدية ، وأرسلوا إليهم الأموال والرجال ، وجعلوا من داعيهم المقدام ، المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (٤٧٠ هـ) سفيراً ، بين الثوار وبينهم . وبفضل هذه الجهود وتلك المؤازرة ، انهزم طغرلبك فى موقعة سنجار سنة ٤٤٩ هـ ، وتبع ذلك دخول الثوار مدينة بغداد فى سنة ٤٥٠ هـ ، والقبض على الخليفة القائم

---

(١) هو نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ — ٣٣١ هـ) . انظر كتاب عبيد الله المهدى المؤلف بالاشتراك مع أستاذه الدكتور حسن ابراهيم حسن .

العباسى ، ثم خطبتهم على منابر بغداد عاما كاملا ، للخليفة الفاطمى المستنصر .

إلا أنه سرعان ما استرد طغرلبك السلجوقى نفوذه ، ففك سراح الخليفة العباسى القائم ، وأجلسه على العرش ، وقضى على الثوار . ومازال السلاجقة يعملون بعد ذلك على الاستبداد بجميع شئون العالم الإسلامى السنى ، ويقللون من نفوذ الخليفة العباسى ، الذى لقى على أيديهم من العنت أكثر مما لقيه على أيدى «أمراء الأمراء» والبويهيين أنفسهم. هذا بالإضافة إلى طمع البيزنطيين والصليبيين فى ممتلكاتهم . وانشقاق أمراء السلاجقة على أنفسهم ، فكان ضعف الزعامة العباسية ، وتفكك السلاجقة ، من العوامل التى ساعدت الحسن الصباح على النجاح .

وقد أوضح فون همر (١) الظروف التى أحاطت بنشأة الحسن فقال : إن عصره كان عصراً مضطربا : قامت فيه أسر وزالت فيه أخرى ، ففى طبرستان وحلب وديار بكر ، اختفت دول وحل محلها دول أخرى. وقام السلاجقة فحلوا محل البويهيين ، وامتد نفوذهم فى سوريا وكرمان وآسيا الصغرى ، فى الوقت الذى لم يكن فيه للخليفة العباسى نفوذ أو سلطان ، وكان النزاع الدينى قائماً على قدم وساق: فالسنيون والشيعيون والحنابلة فى نزاع مستمر .. وأخذ الدعاة الإسماعيلية الذين كانت مصر توفدهم إلى الشرق ، يدعون الناس لمذهبهم ، وينتشرون فى جميع أرجاء آسيا ، ويعملون على إشعال الثورات . لذلك لاندهش إذا ماوجد هؤلاء الإسماعيلية فى الحسن الصباح مناصرا ومدافعاً .

---

(١) Von Hammer : Hist. de l'Order des Assassins, p. 75

وكان السلاجقة سنيين مغرقين فى سنيتهم ، فاضطهدوا غير المسلمين ، كما اضطهدوا كثيراً من الشيعيين . وكان للاضطهاد الذى نال الشيعيين أثره فى تكاتف هؤلاء وإغراقهم فى نشر الدعوة السرية . أضف إلى ذلك أن مدارس الدعوة بالقاهرة ، كانت تغذى بلاد فارس وغيرها من بلاد السنيين ، بطائفة كبيرة من الدعاة الجريئين الأقوياء ، الذين استطاعوا أن يجذبوا الحسن الصباح إليهم .

وكذلك كان لبعد فارس عن مركز الخلافة العباسية ، ولانتشار التشيع والشعوبية ، ولكثرة الدعاة الإسماعيلية فى هذه الجهات السنية ، أثره فى خلق شخصية فذة ، تستغل الظروف ، وتنجح فى تكوين دولة وسط الدولة العباسية المتداعية ، تلك الشخصية الجريئة تراها فى الحسن الصباح . حقا لقد كانت بلاد فارس ، منذ القديم ، محطا للثورات والثوار ، فهذا أبو مسلم الخراسانى ، يرفع علم الثورة على الأمويين ، ويقضى على دولتهم ، ثم يعمل جاهدا على قلب الدولة العباسية ، فيقضى عليه ، على يد المنصور . وهذا المقنع الخراسانى ، يثور فى عهد المهدى ، ويلقى حتفه بعد أن أفنى الألوف من المسلمين . ناهيك عن بابك الخرّمى ، وما أحدثه من اضطراب فى هذه البلاد السنية ، فى عهد المأمون والمعتصم . كما لا ننس تلك الحركات الهدامة التى قام الزنادقة بها هناك ، فى أشكال وصور مختلفة ، وكلها ترمى إلى شىء واحد ، هو قلب الدين والدولة معا . واستمرت تلك الأحداث مستعرة لا تخمد إلا فى الظاهر . فاستغل خلفاء مصر الفاطميون هذه

---

(١) طه شرف : الزندقة والزنادقة (مخطوط) ، ورقة ١٩١ — ١٩٧ .

الحال المضطربة ، فى تلك الأقطار السنية ، فغذوها بأساليب الدعوة السرية المنظمة ، حتى أصبحت على وشك القيام بثورات كاسحة . وخير مثال لذلك ، ثورات الإسماعيلية فى تلك البلاد فى عهد السلطان محمود الغزنوى ، ومناداتهم بالإمام المستنصر الفاطمى .

غير أن السلاجقة تمكنوا قبيل ظهور الحسن الصباح ، من القبض على ناصية الحال ، فكان لا بد لأنصار الدعوة الإسماعيلية ، من الإمعان فى الدعوة السرية ، ثم التكالب حول شخصية يثقون بها . وقد وجدوها فى الحسن الصباح . والخلاصة أن الحسن الصباح لم يكن أول من ثار على الدولة السنية فى بلاد فارس ، وإنما كان واحدا من أفذاذ هؤلاء الثوار ، الذين نالوا كثيراً من النجاح ضد العباسيين ، فى الناحيتين الدينية والسياسية .

وتعتبر الدولة السلجوقية مسئولة إلى حد كبير عن نتائج إهمالها شئون الأخبار والبريد فى البلاد السنية ، إذ سن السلطان ألب أرسلان (٤٥٤ — ٤٦٥ هـ = ١٠٦٢ — ١٠٧٢ م) سنة جديدة ، تتلخص فى عدم وجود أصحاب أخبار فى الدولة ، فقد كان هذا السلطان يتهم هؤلاء بأنهم إنما ينقلون ما يريدون لا غير . فتمكن الإسماعيلية بفضل هذا الإهمال الواضح ، من إحكام أمورهم فى البلاد السنية ، ونجح الحسن الصباح أيما نجاح فى تستره وفى نشر دعواه . وبعبارة أخرى ، كان لإهمال السلاجقة السنيين واجباتهم فى استطلاع أحوال الرعايا ، أثره الكبير فى النجاح الذى ناله الحسن الصباح وجماعته .

أوضح البنداري [١] ذلك فقال : « وكان منهم رجل من أهل الرى وساح فى العالم ، وكانت صناعته الكتابة [٢] فخفى أمره ، حتى ظهر ، وقام من الفتنة كل قيامة ، واستولى فى مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة ، وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعة ، وخفيت عن الناس أحوالهم ، ودامت ، حتى استتبت على استتار ، بسبب أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار . وكان الرسم فى أيام الديلم [٣] ومن قبلهم من الملوك ، أنهم لم يخلوا جانبا من صاحب خبر وبريد ، فلم يخف عندهم أخبار الأقاصى والأدانى ، وحال الطائع والعاصى ، حتى ولى فى الدولة السلجقية ألب أرسلان محمد بن داود ، ففاوضه نظام الملك فى هذا الأمر ، فأجابه أن لا حاجة بنا إلى صاحب خبر ؛ فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء . فإذا نقل إلينا صاحب الخبر ، وكان له غرض ، أخرج الصديق فى صورة العدو والعدو فى صورة الصديق . فأسقط الناس هذا الرسم لأجل ما وقع له من الوهم ، فلم يشعر إلا بظهور القوم ، وقد استحكمت قواعدهم ، واستوثقت معاقدهم ، وأخافوا السبل ، وأجالوا على الأكابر الأجل » [٤] .

كما تعرض العالم السنى لخطر هجوم الصليبيين ، الذى مزق وحدة الشرقين

---

(١) الأصفهانى : كتاب تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٢ — ٦٣ .

(٢) المقصود هو الحسن الصباح .

(٣) المقصود هم البويهيون .

(٤) قتلوهم .

الأدنى والأوسط شر ممزق . وهكذا كان العالم السنى يموج بالاضطراب فى الداخل والخارج معا ، فكان هذا كله من أكبر دواعى نجاح الحسن الصباح - على ما سنرى .

٢ — العالم الإسماعيلى :

استطاع الفاطميون ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، أن يحتفظوا بوحدة العالم الإسماعيلى ، فى كل من فارس واليمن ومصر ، بل وبلاد المغرب كذلك ، غير أنه سرعان ما دالت دولتهم فى بلاد المغرب ، منذ سنة ٤٤٣ هـ ، فزال نفوذهم أمام تعصب السنيين المغاربة ، وأصبحت أسرة زيرى بن مناد الصنهاجى من ألد أعدائهم ، بعد أن كانوا من أكبر أعوانهم . ولم يبق للمذهب الإسماعيلى ، ولا للدعوة الإسماعيلية تبعا لذلك ، شيء من النفوذ فى تلك البلاد .

وكذلك ما لبثت دولة القرامطة فى البحرين أن زالت ، بعد أن أخذ الضعف يدب فى جسمها ، وتكالب عليها جيرانها السنيون ، وما زالوا بالقرامطة ، ينتزعون منهم البلاد شبرا شبرا ، حتى استسلموا تحت وابل من ضربات السنيين المتـــلاحقة ، وانهزموا فى موقعة الخندق ، شمالى الأحساء ، فى سنة ٤٧٠ هـ . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد للقرامطة فى بلاد البحرين وجود سياسى يؤبه له . وبذلك فقد الفاطميون قطرين كبيرين ، أو بعبارة أخرى « بحرين »[١] كبيرين من بحار الدعوة الإسماعيلية : هما بلاد المغرب ، وبلاد البحرين .

---

(١) البحر أو الجزيرة عند الإسماعيلية = الأقليم الكبير الذى يكون لهم ولمذهبهم فيه قوة

غير أن الدعوة الإسماعيلية لم تلبث أن استعادت قوتها ، فخلق الفاطميون لهم فى بلاد اليمن دولة كبرى ، حمل لواءها جماعة الصليحيين ، الذين مكنوا للفاطميين فى بلاد اليمن ، ودانوا لهم بالطاعة ، وحملوا إليهم الأموال والطرف والهدايا ، واتخذوا لهم من القاهرة ومدارس الدعوة بها ، كعبة يؤمها دعاتهم وكبار مفكريهم ، فنقلوا إلى بلاد اليمن كل ما وصلت إليه عبقرية الدعاة الإسماعيلية الأوائل . لذلك كانت دولة الصليحيين مستودعا هاما من مستودعات المذهب الإسماعيلى .

ولم يقف نفوذ الفاطميين عند بلاد اليمن وحدها ، فقد أخذ الصليحيون على عاتقهم أن يمدوا نفوذ سادتهم الفاطميين فى بلاد الحجاز وعمان والهند ، فكانوا سفراءهم ودعاتهم وولاتهم فى بلاد الحجاز ، يشيدون بفضلهم من فوق منابر البلاد المقدسة ، لذلك نرى على بن محمد الصليحى (٤٥٩ هـ) يخطب للمستنصر في بلاد الحجاز ، ويسمو بالمذهب الإسماعيلى والمذاهب العلوية هناك ، وينحو باللائمة على العباسيين ، ويرميهم بالعبث وإهمال شئون الدين . وكذلك اتخذ المستنصر من الملك الصليحى ، أحمد المكرم ، (٤٥٩ — ٤٨٠ هـ) ومن زوجته الملكة السيدة أروى الصليحية نوابا له فى بلاد الهند وعمان ، فأضحى اختيار الدعاة وتعيينهم فى هذين القطرين (عمان والهند) مقصوراً على الصليحيين . ومن ثم احتفظ الفاطميون بنفوذهم فيهما قويا ، وأصبحت زعامة اليمن على هذين «البحرين» سياسة تقليدية ، فدان العمانيون الإسماعيلية ، وإخوانهم إسماعيلية الهند ، لليمن ثم لمصر بالطاعة . وهكذا كان نفوذ الفاطميين

قويا فى اليمن وملحقاتها ، فى الوقت الذى ظهر فيه الحسن الصباح فى أواخر القرن الخامس الهجرى .

أما فى بلاد فارس وخراسان ، فقد أثمرت الدعوة الإسماعيلية فيهما خير الثمار ، وأنجبت أفذاذ الدعاة العلماء ، الذين ساهموا إلى حد كبير فى تلك النهضة العامة ، التى زخر بها القرنان الرابع والخامس الهجريان ، فكان من دعاة الإسماعيلية جماعة من كبار الفلاسفة . ويكفى أن نعلم بأن النسفى والسجستانى (٣٣١) الإسماعيليين ، وغيرهما من الدعاة ، كانوا من كبار الفلاسفة ، وممن حملوا مشعل النقد فى هذه البلاد . وكانت لهم مناظرات قيمة مع فلاسفة عصرهم . ويكفى أن نعلم أيضاً أن هذه المدرسة الإسماعيلية الفكرية ، كانت تساهم مع المدارس السنية فى الرد على أهل الزيغ والإلحاد . وقد أولى هؤلاء الدعاة الإسماعيلية فى تلك المدرسة ، موضوع النبوة والإمامة عنايتهم منذ مستهل القرن الرابع[١] .

ويكفى الدعوة الإسماعيلية بفارس فخراً ، أنها أنجبت نابغة الدعاة أحمد حميد الدين الكرمانى (٤١١ هـ) ، صاحب المؤلفات الفلسفية العميقة ، فقد كان له فى موضوع فلسفة النبوة والإمامة صولات وجولات ، فرد على الفلاسفة السنيين والدعاة الدرزية الغلاة[٢] . ولا غرو ، فهو الملقب بحجة العراقين ، كبير الدعاة الإسماعيلية بجزيرة العراق ، فى عهد

---

(١) انظر كتابنا « الفاطميون وزعامة العالم الإسماعيلى »

(٢) Hamdani : A Compendiuem of the Ismaili Authors (Isl. Cul. 1937) p. 214.

الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وصاحب التأليفات العديدة فى الإشادة بالمذهب الإسماعيلى ، وإثبات إمامة الحاكم ، والرد على مخالفى المذهب »[١].

وقد بذل الكرمانى جهوداً كبرى فى سبيل الوقوف فى وجه دعاة الإسماعيلية الغلاة ، كالدرزية . ولم يشأ أن يعترف لهم بألوهية الحاكم . فكان على رأس جماعة الإسماعيلية المعتدلين ، الذين رغبوا فى الإبقاء على الدولة ، ومجاراة عقائد الرعية السنية [٢] . ومن أهم مؤلفاته فى هذا الموضوع ، كتاب « مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين » ، وكتاب « المصابيح فى إثبات الإمامة » ، وغرضه من كتابته أن يثبت اتفاق مبادىء المذهب الإسماعيلى مع مبادىء السنة [٣] .

ويظهر أن الدعوة الفاطمية فى مصر قد عانت شيئاً من الضعف ، فاعتمد الخليفة الحاكم فى النهوض بها ، على جهود دعاته الفرس ، وبخاصة داعيه النشيط أحمد حميد الدين الكرمانى ، الذى استعان به لتنظيم الدعوة فى مصر . ولا يبعد أن تكون دار الحكمة بالقاهرة من صنع يديه هو ، الأمر الذى يدل على نهوض الدعوة ورقيها فى فارس ، حتى أصبح الخلفاء الفاطميون ، يعتمدون على جهود دعاتهم الفرس ، فى النهوض بالدعوة فى مصر نفسها . يقول الداعى إدريس[٤] : « ثم إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله

---

(١) رسائل فلسفية لأبى بكر الرازى (جمع ونشر الأستاذ بول كراوس) : ص ٧

(٢) انظر كتابنا « المشكلات الكبرى فى تاريخ الفاطميين » .

(٣) Hamdani : Some Unknown Ismaili Authors (J. R. A. S. 1933), p. 372.

(٤) رسائل فلسفية للرازى (جمع ونشر الأستاذ بول كراوس) : ص ٨ — ٩ .

ـ سلام الله عليه ـ بعد أن أعرض عن أهل دعوته ، وأغلق عنهم أبواب رحمته ، جزاء بما كسبت أيديهم ، وعملا بمقتضى الحكمة فيهم ، ليمتحنهم بذلك ، فيتميز المؤمنون بالإخلاص ، ويبقى المنـــافقون فى الحيرة والانتكاص ، نظر إليهم نظرة أنعشتهم بها من الخمول ، وأفاض عليهم من فضله وكرمه المأمول ، وفتح عليهم أبواب علومه وحكمته ، وأسجل لهم سجال رحمته ، ونصب ختكين (١) الضيف فى الدعوة ، لهداية أولى الشك والارتياب ، إفادة من هداه الله بقدر الاستحقاق والاستيجاب ، ولقبه بالصادق والداعى ، حميد الدين أحمد بن عبد الله ، وهو أساس الدعوة التى عليه عمادها ، وبه علا ذكرها وشأنها ، واستقام منارها ، وبه استكانت المشكلات ، وانفرجت المعضلات » .

ومن الغريب أن جهود الكرمانى فى مصر لم تكلل بالنجاح ، فلم يتم له التغلب على دعاة الدرزية ، الذين علا مركزهم فى مصر والشام ، وعاونهم الحاكم معاونة فعالة ، ونال أنصارهم ممن يؤلهون الحاكم شيئا غير قليل من النجاح . ولا يهمنا هنا أن نتتبع حركات هؤلاء الدرزية ، وإنما يهمنا أن نقول : إن هؤلاء الدعاة جميعاً كانوا من الفرس ، وإن حركة المدرسة الدرزية ، والمدرسة الحميدية الكرمانية ، حركات خارجية وفدت على مصر ، وإن بلاد الفرس كانت مصدراً خصباً لهذه الحركات الإصلاحية ، وتلك الحركات الهدامة .

---

(١) وكان قد تولى الادارة فى دمشق حينا من الزمن .

على أن مدرسة الكرمانى أنجبت مدرسة أخرى ، كان بطلها الأول ، الداعى الفارسى ، المؤيد فى الدين ، هبة الله الشيرازى (٤٧٠ هـ) . وكانت بلاد فارس الجنوبية الغربية ، منطقة النفوذ الحيوى لتلك المدرسة ، حتى كان الإسماعيلية هناك يكونون مجتمعا إسماعيليا خالصا ، فكانوا يرجعون فى أمورهم إلى داعيهم الأكبر ، أو بعبارة أخرى « كانوا يتخذون المؤيد أبآ لهم وأخا وصاحبا ، واتخذه الكل سرا ومفزعا فى كل شىء »[١] .

وكان من برامج الإسماعيلية هناك ، من قديم ، التأثير فى البويهيين ، حتى كان المؤيد نفسه يقول : « إن هذا الأمر الذى أتولاه[٢] ، ما أنا أبدعته ، ولا فى أيامى أحدثته ، فإنه قديم نقضت عليه السنون ، واندرج فى معرفته ومشاهدته الملوك . ولو علم أنه يوقع ملكا ، أو يحدث فسادا ، لما نامت عيون فحول بنى بويه عن إحالته وتغييره ، وقصر باعه وقص أظافره ، ولما كان أكثرهم يؤثره دينا لنفسه »[٣].

والحق أن المدرسة الإسماعيلية المؤيدية ، أخذت على عاتقها فى القرن الخامس الهجرى ، جذب ملوك بنى بويه وأمرائهم ، وبخاصة الملك أبا كاليجار ، إلى الفاطميين ، فإن هذا السلطان ، وقد أدرك تقرب العباسيين من السلاجقة ، عزم على تغيير سياسة البويهيين التقليدية ، التى كانت تحتم عليهم النفور من الفاطميين ، خوفا على نفوذهم . ومن ثم اتخذ من الداعى

---

(١) المؤيد : السيرة المؤيدية (مخطوط) : ورقة ١٣ .

(١) أى الدعوة الاسماعيلية .

(٢) المؤيد : السيرة المؤيدية (مخطوط) ، ورقة ١٥ .

الإسماعيلى المؤيد الشيرازى ، واسطة بينه وبين الخليفة الفاطمى المستنصر . يدل على ذلك ماورد فى رسالته إلى المؤيد ، وهو فى مصر سنة ٤٤ ، حيث يقول له : « ولا شك أنك تتذكر ما كنت تبذله عند كونك بحضرتنا ، من التوصل إلى تمهيد المودة بيننا ، وبين تلك الجهة المحروسة ، أى الخلافة الفاطمية فى مصر ، والتطرق إلى أن يأتينا منها فى الفينة بعد الفينة الكتب والرسائل ، التى يتحكم بها الوداد ، ويمكانها يبدو خلوص الاعتقاد[١] ».

ولو لم يكن لتلك المدرسة المؤيدية من عمل سوى جذب البويهيين إلى الفاطميين ، لعد هذا فخرا دونه أى فخر ، ولا غرو فقد انزعج العباسيون من جراء نجاح المؤيد ومدرسته ، فحرضوا [illegible] عليه ، وهددوا البويهيين بالملاحقة . وكانوا يقولون للبويهيين : « إنه إن كانت دعوة تعزى إليهم[٢] فى الأزمان المتقدمة ، فلقد كانت فى الخفاء والستر ، مثل خبيئات الصدور ، ومكنونات القلوب ، وإن أحدا ماجسر على مثل ما جسر عليه هذا الرجل [٣] الفاعل الصانع ، من الوقوف فى بعض مواقف إظهاره وإشهاره ، والتجرد لرفع معالم ذكرهم ، بالصلاة والخطبة ، وإزالة أسامينا بالكلية ، وأنه إذا سوغ فى بابه ، وأهمل الاستيثاق منه ، وتسليمه فى يد صاحبنا ، أى سفير العباسيين عند البويهيين ، فقد أخرجتمونا من عهدة

---

(١) المؤيد : السيرة المؤيدية (مخطوط) : ورقة ١١٥

(٢) أى إلى الإسماعيلية : أتباع الفاطميين

(٣) أى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، داعى الفاطميين فى فارس .

الأيمان والعهود بيننا وبينكم ، وأحوجتمونا إلى استنصار من ينصرنا عليكم ، يعنى التركمانية[1] » . وهكذا لم يخرج المؤيد من شيراز إلى مصر ، حتى كان قد ربط بين البويهيين والفاطميين .

ومما تجدر ملاحظته ، أن مصر ظلت كعبة الدعاة يحجون إليها ، لينعموا بمشاهدة إمامهم بالقاهرة ، فكما أن الكرمانى قصد القاهرة فى عهد الحاكم ، وكما أن القاهرة كانت مستقرا لدعاة الدرزية الغلاة ، كذلك فتحت القاهرة ومدارسها أبوابها المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى . ونعتقد أنه ماقصد إلى مصر إلا ليربط أواصر المودة بين الشرق والغرب ، أو بالأحرى بين الفاطميين والبويهيين من جهة ، وينظم شئون الدعوة فى تلك البلاد من جهة أخرى ، كما نظمها الكرمانى من قبل .

على أن المؤيد الذى كان يمثل الناحية الروحية من الدعوة الإسماعيلية ، أفاد الدولة الفاطمية فائدة تذكر ؛ فقد استطاع بلباقته أن يوحد بين بلاد العراق ومصر حيناً من الزمن ، وأن يثير أمراء العراق على طغرلبك السلجوقى والعباسيين ، وينضوى هؤلاء الأمـــراء جميعاً تحت راية أبى الحارث البساسيرى ، باذلين جهودهم رخيصة فى سبيل القضاء على الدولة العباسية ، وإحلال الدولة الفاطمية محلها . وقد استطاع المؤيد ـ سفير مصر عند هؤلاء الثوار ـ أن يكون جبهة قوية أوقعت الهزيمة بالسلاجقة فى سنجار ـ على ما رأينا ـ تلك الموقعة التى قيل فيها : «هى الوقعة المشهورة التى ظفر فيها البساسيرى» ، وقال فيها الشاعر :

---

(١) أى السلاجقة . المؤيد : السيرة المؤيدية : ورقة ٩٥ ـ ٩٦ .

عجبت لمدعى الآفاق ملكا وغايته ببغداد الركود
ومن مستخلف بالهون يرضى يزاد عن الحياض ولا يزود
وأعجب منهما سيف بمصر تقام به بسنجار الحدود(١)

واستطاع أيضا أن يثير بعض التركمانية السلاجقة على طغرلبك، حتى لقد ثار عليه أخوه، وكاد يوقع به الهزيمة. وبفضل جهود هذا الداعى الإسماعيلى، استطاع البساسيرى ومن معه من العرب، الظفر بالخليفة العباسى، فأسقطوه من فوق عرشه، وخطبوا المستنصر الفاطمى فى العراق عاما كاملا (٤٥٠ — ٤٥١ هـ). ولو ظلت الحالة المالية عند الفاطميين قوية سليمة، ووالى الفاطميون إرسال المدد إلى البساسيرى ومن معه، ولو أطاع الفاطميون الداعى المؤيد الشيرازى، وأمدوا إبراهيم بن ينال، أخا طغرلبك، بالمال والرجال، لو حدث هذا كله، لتغير وجه التاريخ فى العالم الإسلامى عامة، وفى بلاد العراق وفارس خاصة.

وبهذا نرى أن الدعوة الإسماعيلية ورجالها فى فارس، كانوا من أكبر أعوان الدولة الفاطمية، فها هو المؤيد الشيرازى وتلامذة مدرسته، يعملون على جذب البويهيين إلى الدولة الفاطمية، فلما أخفقوا وهالهم زوال البويهيين على يد طغرلبك السلجوقى، بذل الداعى المؤيد ما فوق طاقته، فى سبيل قلب الدولة العباسية، وإحلال الدولة الفاطمية محلها، وعلى

(١) ابن منجب الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٤٤. ومن هذه الأبيات نرى ضعف الخلافة العباسية، فقد رضى خلفاؤها بالذلة والاستكانة، واستلب غيرهم منهم نفوذهم، وعلى عكس ذلك يفخر الشاعر بالخليفة الفاطمى ونشاطه، لأن المستنصر أخذ يدير المعركة الحربية ضد العباسيين فى العراق، وهو باق بمصر.

الرغم من أنه لم يحقق غرضه كاملا ، فإنه استطاع بلباقته ودهائه أن يصد السلطان طغرلبك عن بلاد الشام ومصر، ولا غرو فقد « نفذت كتبه إلى خراسان وبلاد الترك ، يستنفر الناس خفافا وثقالا ، حتى حشد من الحشود الجم الغفير ، والعدد الكثير ، وألقى بين عينيه عزمه ، وجعل مقصده الشام ومصر همه »(١) .

ولا نستبعد أن يكون لتلك الرسالة الحكيمة التى بعث بها المؤيد إلى الكندرى وزير طغرلبك ، أثرها فى امتناع هذا السلطان عن غزو مصر، فقد حاول المؤيد أن يستميل طغرلبك إلى الفاطميين، ويقرب شقة الخلاف بين السلاجقة وبينهم . فأخذ يشيد بالفاطميين ويضع بالعباسيين ، وكان يأمل من وراء ذلك أن يصد هؤلاء السنيين عن الشام ومصر من ناحية ، ويجعلهم يخضعون للمستنصر الفاطمى من ناحية أخرى ، غير أنه إن كان قد أخفق فى جذب طغرلبك إلى سادته الفاطميين ، فقد نجح فى صده عن الشام ومصر .

على أن جهود هذا الداعى الفارسى ، لم تقف عند ذلك الحد ، فقد قدر الفاطميون له صنائعه الكبرى فى كل من فارس والعراق — وأدرك الخليفة المستنصر ، بعد لأى ، أنه أليق الناس لرياسة الدعوة فى مصر ، وبخاصة لما عرف عنه من إخلاص للدعوة وللمستنصر نفسه . يدل على تقدير المؤيد للمستنصر ، وتقدير هذا الخليفة له ، تلك الأبيات التى بعث بها المستنصر . ورد هذا عليه . يقول المؤيد :

أقسم لو أنك توجتنى بتاج كسرى ملك المشرق .

(١) المؤيد : السيرة المؤيدية ، ورقة ٢٦٧ .

ونلتنى كل أمور الورى ... من قد مضى منهم ومن قد بقى
وقلت : لا نلتقى ساعـــة ... أجبت : يامولاى أن نلتقى
لأن إبعادك لى ساعة ... شيب فودى[١] مع المفرق[٢]

وقد رد عليه المستنصر بقوله :

يا حجة مشهورة فى الورى ... وطود علم أعجز المرتقى
شيعتنا قد عدموا رشدهم ... فى الغرب ياصاح وفى المشرق
فانشر لهم ما شئت من علمنا ... وكن لهم كالوالد المشفق
إن كنت فى دعوتنا آخرا ... فقد تجاوزت مدى السبّق
مثلك لايوجد فيمن مضى ... من سائر الناس ولا من بقى[٣]

كما أوقف المؤيد نفسه وقلمه على الدعوة . فأصبح مصدرا لعلوم المذهب لا ينضب معينه ، ولذلك عمل من جانبه على بث مبادىء المذهب الفاطمى ، ونشرها فى كافة « جزر » الدعوة الإسماعيلية ، وبخاصة فى بلاد اليمن ، فأبقى بجانبه لامك بن مالك ، داعى هذه الجزيرة الإسماعيلية ، وما زال معه يعملان على نقل ما أنتجته قرائح علماء الإسماعيلية الأوائل ؛ «فانتقل أدب الدعوة الإسماعيلية إلى اليمن عن طريقهما» . هذا وقد اتخذه المستنصر أداة اتصال بينه وبين المكرم ، ملك الصليحيين ، وعمره بالألقاب الفخمة ، التى تدل على مدى تقدير الفاطميين لهذا الداعى ، انظر المستنصر

(١) الفود : جانب الرأس مما يلى الأذنين . والمفرق وسط الرأس .
(٢) الدكتور محمد كامل حسين : رسالته للدكتوراه ، ورقة ٥٤ .
(٣) سجلات المستنصر ص ٣٠٨ .

يصفه للكرم الصليحى بقوله : « إنه الشيخ الأجل، داعى الدعاة، المؤيد فى الدين ، عصمة المؤمنين ، صفى أمير المؤمنين ووليه ، أبو نصر هبة الله ابن موسى ، سلمه الله ، وأحسن توفيقه وتسديده » (١) .

وقد شعر المؤيد بسمو مركزه فى عالم الدعوة الإسماعيلية وبخطورة الدور الذى قام ويقوم به فيها ، فشبه نفسه بسلمان الفارسى ، الذى يدعى الإسماعيليه أنه كان اليد اليمنى لعلى بن أبى طالب . فجعل يقول :

لو كنت عاصرت النبي محمدا ما كنت أقصر عن مدى سلمانه

ولقال : أنت من أهل بيتى معلنا قولا يكشف عن وضوح بيانه (٢)

وبعد ، فإن المؤيد الشيرازى يعتبر صورة صادقة لأنصار الدعوة الإسماعيلية الخلص من الفرس خاصة ، كما أن حركته والحالة هذه ، استمرار لتلك الحركات القومية ، التى قام بها أستاذه الكرمانى ، وتلك التى قام بها أنصار الحاكم ـ الدرزية ـ وكانوا جميعا ينظرون فى حركاتهم هذه إلى أئمتهم فى مصر ، نظرة إجلال وإكبار ، ويتخذون القاهرة وقصور الخلفاء كعبة يحجون إليها ، وكل هذا يدل على الانسجام التام بين الفاطميين فى مصر وأتباعهم الإسماعيلية فى فارس ، ويدل فى الوقت نفسه على أن النهضة الثقافية الإسماعيلية فى بلاد فارس ، كانت مزدهرة فى القرنين الرابع

---

(١) سجلات المستنصر ص ٢٢٤

(٢) زهر المعانى للداعى إدريس (ترجمة ونشر الدكتور حسين الهمدانى) فى المجلة الآسيوية الملكية ، سنة ١٩٣٢ م ، ص ١٢٩ — ١٣٠ .

والخامس . فكان لهذا أثره فى تلك الحركة التى سيقوم بها الحسن الصباح ، فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، وأوائل القرن السادس .

وليس من شك فى أن تأثير المدرسة الحميدية (١) ، والمدرسة المؤيدية (٢) ، كان عظيما فى بلاد فارس الغربية ، مما جعل نشر الحسن الصباح الدعوة فى إقليم قوهستان ـ غربى فارس ـ سهلا ميسوراً . غير أن أهم المدارس الإسماعيلية التى كان لها أعظم الأثر فى حياته ، هى المدرسة الناصرية (٣) ، فإن مؤسسها ناصرى خسرو (٤٨٠ هـ) ، زار مصر فى سنة ٤٣٩ هـ ، وحج إلى مكة أربع مرات ، وخرج من مصر فى سنة ٤٤٣ هـ ، ووصل إلى خراسان فى سنة ٤٤٤ هـ . وعلى الرغم من تشكك كثير من المؤرخين فى الدوافع التى دفعت ناصرى خسرو إلى زيارة مصر ، وتشككهم كذلك فى اعتناقه المذهب الإسماعيلى قبل اتجاهه نحو الغرب ، على الرغم من هذا كله ، فلسنا نشك فى أن ناصرى خسرو كان إسماعيلى المذهب قبل مجيئه إلى مصر ، وأن الدافع الذى دفعه إلى زيارة تلك البلاد ، هو الرغبة فى الاستزادة من العلم والمعرفة ، وإتمام الإلمام بأصول المذهب الإسماعيلى ، عن طريق مدارس الدعوة بالقاهرة ، وعن طريق أستاذه وإمامه المستنصر الفاطمى .

ونريد أن نقول : إنه لا يبعد أن تكون هيئات الدعوة فى «الجزر» الإسماعيلية المختلفة قد عملت على اكتشاف نوابغ الدعاة وتخليصهم ، وأخذت

---

(١) نسبة إلى حميد الدين الكرمانى (٤١١ هـ) .

(٢) نسبة إلى المؤيد فى الدين ، هبة الله الشيرازى (٤٧٠ هـ) .

(٣) نسبة إلى ناصرى خسرو ، « حجة » المستنصر فى خراسان (٤٨٠ هـ).

تنتقى أكثرهم لياقة لأن يلى الرياسة، وتبعث بهم إلى مصر لتلقى دروس الدعوة فى الناحيتين العملية والنظرية . وسنرى الحسن الصباح يفد إلى مصر بعد أن رشحته رياسة الدعوة فى خراسان لهذا الأمر .

والذى لا يشك فيه أحد أن أبا معين الدين ، ناصرى خسرو، خرج من مصر فى سنة ٤٤٣ هـ . وهو يعتنق المذهب الإسماعيلى. ويقوى عقيدتنا فى أن ناصرى خسرو، كان إسماعيليا مشهوراً قبل رحلته إلى مصر، أنه لم يعمد وهو فى طريقه إليها إلى الاختلاط بالحاج السنيين ، بل كان يتلافى الاقتراب منهم ، ويسلك طرقا أخرى غير تلك التى كانوا يسلكونها ، ولا بد أنه كان يفعل ذلك حتى لا يفتضح أمره . وثمة شىء آخر، هو أنه اتجه نحو مصر والشام ، ولحجاج فارس وخراسان طرق أخرى غير طريق سورية ومصر، مما يدل على أن ناصرى خسرو كان يقصد مصر وحدها، الاتصال بإسماعيليتها، وبخليفتها المستنصر نفسه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، استقبل الخليفة المستنصر ناصرى خسرو فى القاهرة استقبالا رائعا ، فبم نفسر هذا ؟ أليس فى ذلك العمل الدليل القاطع على اعتناق ناصرى خسرو المذهب الإسماعيلى قبل وفادته إلى مصر ؟

وأما الأثر الذى تركته زيارة هذا الزعيم مصر، فيتضح من أنه بقى فيها مدة طويلة ، (٤٣٩ — ٤٤٣ هـ) فبم نفسر بقاءه هذه المدة ؟ لا يخالجنا شك فى أن ناصرى خسرو إنما بقى فى مصر هذه المدة ، لارتشاف مبادىء المذهب الإسماعيلى من مناهله الحقيقية ، والتعمق فى أصول هذا المذهب ، وإذن أفاد ناصرى خسرو من بقائه فى مصر فائدة كبرى ، فتضلع فى عقائد

المذهب الإسماعيلي .

وأهم أثر لرحلته أن المستنصر عينه «حجة» على خراسان و«بادخشان» ، فى أواسط آسيا ، ووظيفة «الحجة» [١] من أكبر الوظائف بين رجالات الدعوة الإسماعيلية ، حيث يتمتع صاحبها بالنفوذ المطلق فى جزيرته أو بحره — ولكنه فى الوقت نفسه يتعرض لسخط السنيين . وهكذا عاد ناصرى خسرو «إلى خراسان ، وأوقف حياته على الجدل المذهبى ، وبث الدعوة الإسماعيلية للمستنصر ، وهو يعلم أن الوسط الذى يبث الدعاية فيه سنى متعصب ... وهو يعلم فوق هذا أن الدعاية للفاطميين ، وعلى رأسهم المستنصر ، فى خراسان ، مما يغيظ الخليفة العباسى فى بغداد ؛ فإنه ينفس على الفاطميين ما هم فيه من سلطان ، وما هم عليه من قوة ، وإنه ليغضب على كل من يعمل لهم فى بلاده ، فإذا غضب الخليفة على شخص لا يملك المقاومة ، فمصيره إلى الهلاك ، ويلقى فى حياته أشد العذاب ، وأنه ليعلم أن كيد الحاكمين عظيم . ما كان هذا ليرهب ناصرا أو يصرفه عن عقيدته [٢]» .

وبهذا نرى أن ناصرى خسرو كان بعد عودته من مصر يدعو إلى الخليفة المستنصر فى طبرستان ، تلك البلاد التى كانت ملاذ الزيدية بعد ذلك . وتبعه جماعة من الطبرستانيين . وقد أثار ذلك عليه عاصفة من حقد السنيين ، فاضطر إلى الفرار إلى نيسابور ، ولكنه لما وجد استحالة بقائه فيها ، قرر الفرار إلى بلاد ما وراء النهر ، فى أعالى جيحون .

---

(١) نيابة الإمامة .

(٢) يحيى الخشاب (دكتور) : رحلة ناصرى خسرو ، (رسالة) ورقة ٣ .

وقد بقى لليوم هناك جماعة من الإسماعيلية ، يدينون له بالتقديس ، ويسمون الناصرية . يقول براون [١] : « إنه حين حاول أعداؤه القضاء عليه فى نيسابور ، فر إلى مرتفعات سمجنان Simignan فى أعالى جيحون ، وبقى هناك عشرين سنة ، يأكل العشب ، ويشرب الماء القراح » .

وتذكر بعض المصادر أن الذى عينه على بادخشان هو المستنصر على أن هذا لا يمنع أن يكون المستنصر قد عينه حجة على خراسان وبادخشان معا ، لقربهما من بعضهما البعض ، فلما استحال عليه البقاء فى خراسان ، فر إلى بادخشان . يقول ناصرى خسرو عن نفسه : بعد أن عوملت خير معاملة بمصر ، عينت داعيا لدعاة خراسان ، وبعد ذلك بقيت مدة فى قصر مولانا المستنصر ، وقد دعا الإمام ذات مرة حججه ودعاته ... وحين نظر مولانا إلى ناحيتى ، امتلأ قلبى نوراً ، وأغمى على ، وقال لى برفق : يا سيد ناصر ! قد عينتك «حجة» لبادخشان . والله يساعدك . فقبلت الأرض فى خشوع ، وأخذت عنه التعاليم ، ثم قصدت بادخشان عن طريق بلخ [٢] .

ويهمنا هنا أن نقول : إن ناصرى خسرو قد مهد السبيل للنزارية ، فلما عهد المستنصر للحسن الصباح برياسة الدعوة فى بلاد خراسان وفارس ، وجد هذا الزعيم الجديد الطريق ممهدة له . ولئن وجدت الدعوة طريقها إلى قلوب أهالى تلك البلاد ، منذ أيام عبيد الله المهدى ، الذى استجاب له خلق كثيرون ، ومنهم بعض أمراء السامانيين ، فإننا نرى هذه

---

(١) Nasiri Khosrow (J. R. A. S. 1905), p. 329

(٢) Schefer : Hist. de l, Asie Centrale, pp. 255 — 6

الدعوة نفسها ، وقد نشطت نشاطا كبيراً فى تلك البلاد فى عهد المستنصر . حقيقة تعرض الإسماعيلية هناك لكثير من الاضطهادات على يد السنيين ، وبخاصة فى عهد السلطان محمود الغزنوى (٣٩٨ — ٤٢٤ هـ) ، غير أن الدعوة لم تلبث أن استعادت نشاطها ، وأعلن الإسماعيلية هناك الثورة الصريحة على الخلافة العباسية ، ونادوا بإمامة الخليفة المستنصر الفاطمى ، وبخاصة فى بلاد ماوراء النهر ، منتهزين بعد تلك البلاد عن بغداد من جهة ، وانتشار المذاهب الإلحادية فيها من جهة أخرى .

والحق أن الدعاة الإسماعيلية قبل الحسن الصباح ، وجدوا مبتغاهم فى تلك البلاد الشرقية ، وكادوا ينجحون فى إثارة أهلها على العباسيين ، لولا نشاط واليها العباسى . يقول العينى (١) : «إن صاحب ما وراء النهر السنى ، أوقع بجمع كثير من الإسماعيلية ، وذلك أن نفرا منهم قصدوا ماوراء النهر ، ودعوا إلى طاعة المستنصر العلوى ، صاحب مصر ، وتبعهم جمع كثير ، وأظهروا مذاهب أنكرها أهل تلك البلاد ... فأوقع بهم ، وسلمت تلك البلاد منهم » . وإذن كانت هذه البلاد وغيرها من بلاد المشرق ، على قدم الاستعداد للثورة فى سبيل المستنصر ، أو قل فى سبيل نشر الدعوة الإسماعيلية ، الأمر الذى ساعد البزارية على النجاح فيما بعد ، وبعبارة أخرى ، كان هؤلاء مثالا احتذاه الحسن الصباح وخلفاؤه ، فى الثورة على العباسيين والسلاجقة .

من هذه الكلمة السريعة نرى أن بلاد فارس وخراسان كانت تعج بأنصار الدعوة الإسماعيلية ، وأن الظروف جميعها كانت مهيئة لتقبل

---

(١) العينى : عقد الجمان (مخطوط) جـ ٢٠ ورقة ٤٠ .

مبادىء الحسن الصباح ، ونرى أيضا أن الفاطميين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير فى تلك البلاد ؛ مما يحدونا إلى الاعتقاد بأن عهد المستنصر الفاطمى كان حافلا بجلائل الأعمال ، فقد بذرت فيه بذور دولة الغزارية فى فارس وخراسان ، وقامت الدولة الصليحية فى أقصى الجنوب باليمن ، وامتد نفوذ المستنصر وأبنائه من بعده ، فى اليمن والحجاز والبحرين وعمان والهند بفضل دولة الصليحيين. وكذلك راجت الدعوة فى عهد هذا الخليفة ، ليس فقط فى بلاد فارس وخراسان ، بل توغلت فى قلب آسيا ، حتى وصلت إلى بادخشان وهضبة التبت نفسها ، مما يدل على أن جغرافية الدعوة الإسماعيلية فى عهد هذا الخليفة ، كانت أكثر اتساعا من جغرافية الدولة بكثير ، وقد ساعد هذا الانتشار الحسن الصباح على النجاح .